

اللباس التقليدي، "الحايك نموذجاً"

The traditional clothes, The hayek model

دريسي ثاني سلاف، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر

drici_tani@live.fr

ملخص :

يعد الحايك من الألبسة التقليدية التي تعتبر جزء من ثقافتنا وتاريخنا الممتد على مدى قرون من التاريخ . استعملته المرأة و الرجل على حد سواء منذ حضارات قديمة بغرض الاحتماء من حرارة الشمس و برودة الطقس كما أعتبر رمز للعفة و الحشمة و الأنوثة و هو مبدأ من مبادئ الهوية لكنه تأثر بالتغيير الاجتماعي و الثقافي و تغير في الشكل و الوظيفة و أصبح تقليدا في طريق الزوال لا يستعمل إلا في بعض المناطق باحتشام و صار طقس من طقوس الزواج ، فالمحاولة هنا هي إلقاء الضوء على ماهيته و أنواعه و أصوله و وظائفه و التغييرات طرأت عليه .

الكلمات المفتاحية :

اللباس التقليدي -الهوية -التراث -الرمز-الحايك

Abstract :

The Hayek is a traditional clothes who are a part of our culture and our history, stretching over centuries of history, men and a woman used it since the ancient civilization, and it symbol of decency and femininity, and the principal of identity, but the influenced by social change and cultural, it has become a tradition in the way of disappearing, only in some country and it become a ritual of marriage. The attempt here is to shed light on what is the Hayek and the types, and origins, functions and it's changes.

Keys word:

The Traditional clothes – The Identity- the patrimony–The symbol-The Hayek

مقدمة :

يمثل اللباس التقليدي جزءا من ثقافتنا وتاريخنا الممتد على مدى قرون من التاريخ، فهو جزء مهم وسمّة أساسية لأي جماعة أو شعب من الشعوب فمن الطبيعي أن يعتز كل فرد بملابسه ففيها ارتباط وعمق تاريخي وثوراتي بالأصالة والحضارة والعادات والتقاليد.



يعبر اللباس التقليدي الجزائري غالبا عن التأثيرات الثقافية المتعددة ،سواء من الأمازيغية أو العربية أو الأندلسية أو الأوروبية أو العثمانية ،حيث ساعدت على خلق الإلهام لأنها تزاوجت مع القيم الجزائرية.

ومن بين اللباس التقليدي الجزائري الذي يعتبر أحد المقومات العريقة في التراث الجزائري الأصيل نجد "الحايك" لماله من أثر كبير ومكانة خاصة في العادات و التقاليد الجزائرية . كما يعتبر الحايك رمز للعفة والحشمة والأنوثة، فهو مبدأ من مبادئ هوية المرأة الجزائرية، فهو يميز كل واحدة من النساء التي ترتديه و

بالطريقة التي تستعمله تعلن المرأة من خلال هذه العلامة الخاصة باللباس والانتماء الى مجموعة، المكان، الذي يصبح حينئذ مكانا رمزيا ينطوي على الخضوع للطقوس، لأدوار اجتماعية وعليه فهو مكان معياري لأن الحايك هو في نفس الوقت عنصر لتحديد الذات،فهو تعبير لعلاقة محلية ليس مع المتطلبات الدينية ولكن أيضا لانتساب للوطن .

ومن خلال هذا المقال سوف نحاول تسليط الضوء على تعريف الحايك، ما هي أصوله، الوظائف التي أداها عبر الزمن والتغيرات التي طرأت عليه ؟

(1) تعريف الحايك:

يعد الحايك رمز من رموز الثقافة الشعبية وجزء من موروثها الشعبي الذي تفتخر به المرأة الجزائرية عبر الزمن، فلطالما أظفا عليها سحرا وجمالا وبحفظ حيائها ويزيد من بهائها وقيمتها. فالحايك هو عبارة عن غطاء من القماش للسترة¹ مربعة الشكل بطول 14متر تقريبا على عرض 1,60م إلى 1,80م وذلك حسب المناطق، وأما لونه كان أبيض ليعكس أشعة الشمس. قديما كان يصنع من شعر المعز استعملته النساء في الجزائر. وهذه القطعة القماشية ذات التركيب النسيجي الطبيعي المنسوج يدويا من الصوف أو الحرير، أو النسيج المختلط بحيث تستر المرأة نفسها بمجرد بلوغها ،تلبس الحايك فلا يرى منها إلا قوام أبيض متحرك يغطي جسمها من الرأس إلى القدمين فلا تتمكن من الرؤية إلا من خلال عين واحدة "العوينة" تشد أطراف الحايك إما تحت الإبطن أو عند الخصر وكان الحايك المصنوع بالحرير ومزين بخيوط

ذهبية أو فضية محصورا على العائلات الميسورة الحال، فكان يوجد أيضا حايك نصف المرمة لقلة الخيوط الحريرية فيه، كانت ترتديه المرأة لزيارة أهل والأقارب ولقضاء حاجاتها اليومية، وتضع على وجهها قطعة من قماش أبيض مطرزة على شكل مثلث تدعى العجار وقد كان للحايك مكانة خاصة لدى العرب والبربر في الجزائر، حيث كانت تستخدمه المرأة في كل شيء



فهو الذي يحجبها بالنهار ويغطي أفرشتها في الليل، أما إنتاجه فقد كان يصنع في معظم أنحاء الجزائر وليس فقط في مدينة الجزائر².

إن التسمية الحقيقية للحايك مشتقة من كلمة الحياكة أي نسج الثوب وحيك - حيك أي نسج وحيك ثوبا حياكة - نسج - حاك الصوف - حاك ألباتا من الشعر دبر وخطط وأعد سرا³. وكلمة حاك تطلق على لباس المرأة بالمغرب يسمى بهذا الاسم في الجزائر العاصمة وضواحيها ويدعى في غرب الجزائر "الكساء"

وهناك ما يسميه الملحفة إذ يعرف هذا الزي بأنواع مختلفة في الجزائر

II) أنواع الحايك في الجزائر:

رغم أنه ينسج عادة من الصوف، والقطن أو الحرير فإن مواد صنعه، ألوانه تتغير



من عهد إلى آخر ومن ثقافة إلى أخرى ومن منطقة إلى أخرى، كما أنه يعرف بالمغرب العربي بتسميات مختلفة "براكان" بليبيا "وسفساري" بتونس و الحايك بكل من المغرب الأقصى والجزائر. وبالجزائر نجد أنواع مختلفة بحيث كل منطقة اسم لهذا الزي "الحايك" خاص بها.

1- الملايا M'Laya:

قررت نساء الشرق لبس هذا الزي الذي هو إلا قطعة قماش مقاسها حوالي 12 ذراعا سوداء اللون يغطي كامل جسد المرأة كعلامة حداد الذي عقب الوفاة المأسوية لصالح باي الذي حكم قسنطينة لمدة

واحد وعشرين سنة، حيث كان يعرف بعدله ونزاهته وحب الناس له.

تدخل الملايا من الأسفل الذي يقابل الجزء المخاط وصولا إلى الكتفين ثم تغطي الرأس بشد الشريطين الموجودين في الطرفين وتربطهما عند مؤخرة الرقبة بحركة خفيفة تسمى "الرمية"

ترمى الطرف الأيمن والطرف الأيسر خلف الكتفين، ثم تتبهما بدبايس على مستوى الرأس مع العلم أن للملايا فتحة واسعة من الأمام على مستوى الخصر لتسهيل حركة اليدين⁴.

2- أحولي : AHouli

ترتدي المرأة بمنطقة غرداية منسوجا يعرف "أحولي" مشدود على مستوى الخصر ويرفع الجزء المتبقي منه لتغطية رأسها ووجهها بحيث لا يظهر منها إلا عين واحدة، اليمنى بالنسبة للمرأة المتزوجة واليسرى للمطلقة أما العازبة فلا تغطي وجهها ويشد الجانبين باليد⁵.

3- تيسغنيت: Tiseghnest

تلف المرأة الترقية جسدها مرة أولى بهذا الرداء وتصنع عقدة فوق كل كتف ثم تبسط ما



تبقى من قطعة القماش على نفسها ، مرة أو مرتين ، يثم تثبت قلادة في طرف "تيسغنيت" تسمى "تيليليت" مشكلة من حلقات متعاقبة متصلة بسلاسل لأبقاه ملتصقا بالجسم ويدعم بوضع حزمة مفاتيح أو مفتاح قفل تقليدي في طرفه عند القاعدة ، بحيث تلبسه نساء جانبيت وتمنراست وفي مناطق أخرى ولكن بتسميات أخرى مثل "إزار" بأدرار⁶.

4- المرمة: M'Rama

يصنع المرمة من قماش من الحرير وقد يكون في بعض الأحيان خليط من الحرير والقطن ففي نهاية القرن التاسع عشر استغنت المرأة الحضرية عن "الإبزيمات" التي كانت تمسك بها هذا الرداء المخطط على مستوى الكتفين لتسهيل لبسه



واعتمدت على طريقة أخرى سريعة وبسيطة تتمثل في تغطية الجسم كله مع وصل جانبي الرداء في الوسط وشدها تحت الإبط مع إمساك جوانبه العلوية باستعمال يد واحدة.

أما المسنات فكانت تقوم بشد الحايك حول خصورهن بحزام أو تدخله في السروال سواء السروال المفتوح على الجانبين أو (سروال الشقة) أو المنفتح (سروال المدور) ويتم شد الجانبان العلويان بدبوس (مسك) لتحرير اليدين

5- الملحفة الصحراوية :

عبارة عن ثوب طوله أربعة أمتار وعرضه لا يتجاوز المتر

الواحد و الستين سنتيمتر، تلبسه المرأة الصحراوية أينما حلت و ارتحلت وهو نوعا من القماش الساتر الذي تغطي به المرأة بدنهما بطريقة "الألتفاع" أو "التلفع" بمعنى أنها تلف بها جسدها كله، فالملحفة تعد رمزا قيما وحضاريا أيضا ، لكن ليست كل الملا حف متشابهة ،ذلك أن المرأة الصحراوية تميز بين ملحفة المناسبات و الملحفة التي تلبس يوميا بالخيمة وبدون مناسبة. كما أن المرأة الصحراوية تميز بين ملحفة المرأة الشابة وملحفة المرأة كبيرة السن. في قديم الزمان كان للفتيات الصحراويات لباس يتكون من قطعتين بلونين مختلفتين، أزرق وأسود مع ضفيرة واحدة وعند بلوغها سن الرشد تلبس الشابة الصحراوية الملحفة إلى حين زواجها، وعموما لم يحدث تغيير كبير على طريقة لباس الملحفة، وتتنحصر التغيرات على نوع الثوب الذي يصنع منه الملحفة، حيث كانت الملحفة تصبغ بالنيلة (نبته يستخرج من أوراقها نوع من الصبغة الزرقاء) والتي تعتبر واق من أشعة الشمس⁷.

أ)- العجار :

إن ارتداء الحايك انتشر بالجزائر العاصمة بإرادة نمو و التطور الإجتماعي للمدينة منذ حضارات قديمة إلى غاية القرن 14 و القرن 15. الفترة التي وصلت فيها إلى رتبة المدن الأكثر أهمية بالمغرب العربي، وأصبح الحايك في هذه الفترة جزء من لباس لكل امرأة بالمدينة باختلاف كبير في الثمن والنوعية. فالنساء الأكثر ثراء كان لهن وسيلة للدلالة على تميزهن وانتماءهن للعائلات الغنية وذات نسب.

كما ثم استعمال العجار مع الحايك الذي يغطي أسفل الوجه ويربط من خلف الرأس بحيث كان العجار والحايك منتشرة في كل منا طق شرق البحر الأبيض المتوسط مثل إسطنبول –مصر بواسطة العجار كانت النساء يرون الرجال دون أن يروهن⁸.

النقاب أو العجار تضعه المرأة لتستر نصف وجهها الأسفل ويلبس مع الحايك فلا يظهر من وجهها إلا بالعينين وهو عبارة عن قطعة من القماش القطن أو الحرير "الأورغاندي" مربعة

الشكل أو مثلثة، موحدة أو مطرزة، تغطي الخدين بوضعها تحت مستوى العينين وتسدل فوق الذقن حتى أنها تستر أعلى الجسم يشد هذا أو العجار الى الورا بواسطة رباط أو شريط. كان قديما يلف على الرأس فيغطيه ثم يدار ليستر بعضا من الوجه، ثم تطور ليصبح قطعة قماش يربط طرفها العلويين بخيط عادي أو مطاطي ويحزم هذا الخيط أو يلف خلف الرأس ليثبت العجار على الوجه ويكون العجار بنفس لون الحايك وفي غالب الأحيان مطروز لإظهار شكلا



جميلا⁹.

ب)- أنواع العجار:

هناك عجارات متنوعة حسب نوع الطرز.

1- عجار الشبكة :

ينجز هذا العجار باستعمال إبرة وخيط قطي دقيق على دعامة ورقية مكونا أشكالا متنوعة، تتطلب إتقان دقة وتحكم كبير في التقنية، بعد الانتهاء من انجاز العمل يخاط الشكل على الجزء السفلي من القماش.

2- عجار لبرودي :

نسبة الى الطرز الذي ينجز عليه إما أن يكون طرزه باليد أو بالمكينه باستعمال خيوط الحرير أو القطن متنوعة الألوان، الأشكال عامة تكون زهرية.

3- عجار لكروشي :

نسبة إلى الأداة التي يتم انجاز الطرز (le crochet) تنوع أشكاله حسب الرغبة وترتيبه في الأيام العادية.

4- عجار العقاش :

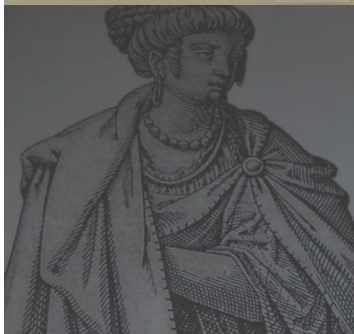
هو عجار لاستعمله إلا المتزوجات ،مرصع بحبيبات من العقيق مختلفة اللون والحجم .

5- عجار الحاشية :

يتميز هذا النوع من العجار بزخرفة تنجز بواسطة أشرطة حريرية متنوعة الألوان تثبت على القماش لتشكل رسومات مختلفة عادة ما تكون وردية¹⁰.

ج) الأبريمات : Fibule

يمثل الإبريم ملحقا للحايك التقليدي الحضري حيث كان يشبك الحايك من الجهتين بين الكتفين¹ لتثبيت الملحفة باستعمال زوجين من الإبريم تكون في غالب الأحيان مترابطة بسلسلة مثلها مثل " الملحفة



اللباس التقليدي البربري يأخذ الإبريم المخصص للحايك بشكل " أوميغا"يتكون الجزء الوظيفي في هذا النوع من ساق أو دبوس يحوي في قاعدته على تجويف تنزلق فيه حلقة و تزود قاعدة الدبوس بصفحة زخرفية . كان الإبريم المصنوع من الفضة أكثر انتشارا ،أما المصنوع من الذهب فكان خاصا بالعائلات الثرية ، كما استعملت مشابك مصنوعة من



الذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة، مع بداية الأزمة العالمية في الثلاثينات من القرن العشرين تعذر على سكان الحضر اقتناء أبازييم الفضة أو الذهب و استبدلت بمشايك مزينة أو بدبابيس بسيطة¹¹.

(III) أدوات وطرق صنع الحايك:

توجد مواد عديدة لصناعة الحايك، من بينها الصوف التي كانت أكثر استعمالا نتيجة مرونتها وليونتها التي تضفي عليها صفات لا يمكن انكارها لصناعة لصناعة أنسجة دقيقة كالحايك، الذي كان يصنع مثله مثل باقي الأنسجة الأخرى على المنسج العمودي التقليدي المسمى "منسج المرمى" فهي آلة لصناعة الحايك.

كان يصنع من صوف الكباش البيضاء الناعمة الرقيقة و المجعدة، ثم استبدلت الصوف في صناعة الحايك بمادة الحرير في القرن السادس عشر بعد دخول مسلي الأندلس إلى الجزائر، كما كانت المادتين تمزج وتستهمل مع بعضها البعض أحيانا.

ثم إدخال الخيط الذهبي و الفضي في صناعة الحايك المخصص للعرائس و للمناسبات حتى يضاف عليه بريقا ولمعانا¹².

(IV) أصول الحايك :

يعتبر الحايك الألبسة التقليدية التي استعملها الرجال والنساء بحد سواء منذ العصور القديمة .



ترجع دراسات تاريخية كثيرة لظهور الحايك الجزائري (أو غطاء المرأة) إلى الفينيقيين ،وكان يعرف حينها "بالأس"، في حين يرجع مؤرخون آخرون هذه التسمية إلى ليبيا في القرن الخامس قبل الميلاد لكون الليبيين أول من نقل الفساتين المصنوعة من جلد الماعز المزين بالصبغة الحمراء إلى اليونان، وهم نقلوه إلى المغرب الكبير في العصور القديمة عن طريق اسبانيا، ثم ايطاليا ف قبرص في القرن الثالث قبل الميلاد، تغطي به المرأة الجزائرية من حيث اللون والشكل والمضمون، ومن حيث كيفية ارتدائه و تراتب الفتات



النسائية التي كانت تلبسه ضمن الطبقات المجتمعية الجزائية، ويعود ارتداء المرأة العاصمية له خلال القرن 16م.

استعمل اليونان هذه الزي وبعدها ثم تبنيه بنوميديا وهذا تزامنا مع ازدهار الحضارة اليونانية التي تركت أثر على سكان حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن 3 ق.م اليونانيون كانوا حاضرين في حوض البحر الغربي خلال القرن 8 ق.م ولكن فقط مع نهاية القرن 4 وبداية القرن 3 كان فقط النساء

الثريات يلبسن الحايك البسيط والخفيف مثلما ثم نقله من طرف الفينيقيين. و لكن لبس الحايك أو الستار بدأ يعمم أكثر خلال الحضارة اليونانية وتعودوا على ارتدائه بالإيزيم وبدون إيزيم مثل نساء اليونان. العلاقة بين اليونان ونوميديا تقلصت لأن المراقبة من طرف قرطاجنة التي تحافظ على سيطرتها على تجارة المنطقة وتمت هيمنة الحضارة اليونانية على نوميديا في بداية الأمر عن طريق التبادل و الزواج بين القرطاجيين ، ولكن فقط في فترة حكم ماسينيسا انتشر هذا النفوذ وسط مملكة نوميديا الموحدة. عمل ماسينيسا طوال فترة وجوده على المملكة على توسيع مدن المملكة بدأ "بسيرتا" التي أصبحت عاصمة ثقافية، أين سكان المدينة تبنو طرق عيش مستوحاة من اليونان، بحيث عمل ماسينيسا على تلقين أبناءه تربية يونانية و بعد وفاة ماسينيسا تولى ابنه "ميسيسبا" الحكم من فترة ما بين (148 الى 118 ق.م) واستمر في مسار والده باستقبال فنانين ومتقنين يونانيين، وفي هذه الظروف في القرن 3 والقرن 2 ق.م انتشر الحايك بالإيزيم تدريجيا في مدن نوميديا والمدن المجاورة لها¹³.

وهذا الشكل الموحد للحايك في الدول المغربية أكدت فرضية ليبيا ودورها في تطور الحايك في دول غرب الضفة الأفريقية وفي انتشاره و العلاقات ما بين اليونان وليبيا كانت حميمة. يقول "هيرودوت" في ذلك : اللباس الذي نراه في اليونان على تمثال أثينا قد اقتبسها من عند الليبيين حيث الليبيين يضعوا فوق كتفهم جلد المعز مزينة بأهداب ومصبوغة بصبغة حمراء إذ الاسم يبين أن لباس (الأس) تسمية الحايك قديما هو أصل ليبي. وهذا يبين أن اللباس الذي يلبسونه اليونان و الليبيين كان مرتبطا سابقا باقتراض متبادل في القرن 5 ق.م وممكن قبل ذلك. من الصعب تحديد تأثير الليبي و التأثير اليوناني في إدخال الحايك بالإيزيم إلى المغرب لكن عادة رفع الستار للتحجب بد أمع نساء الطبقة الأريستوقراطية خلال حكم ملك نوميديا في ظل انضمام الدول عن طريق امبراطورية الرومان. إن الزوج لارتداء الحايك للخروج زاد حيث أصبحت مدينة *césarée* عاصمة روما

وأصبح هذا الغطاء (الحايك) اليوناني معمم عند العديد من الشعوب، وكون الرومان أولو اهتمام كبير باللباس اليوناني فضلو لبس الحايك، إذ عرف هذا الأخير انتشارا كبيرا في المناطق الجبلية للوطن عن طريق التبادل مع سكان الشمال وبالأخص نتيجة لزوح العديد من سكان السهول من مطرودين من أراضهم بانتشار الاستعمار الروماني، وبحركة السكان والزواج بين أكبر عائلات القبائل (سكان منطقة التلمسانية والأوراس مثلا...).

إن ترحال لبعض قبيلات البربر وتوحيد المغرب ساعد على انتشار ارتداء الحايك بالإقليم من حدود ليبيا حتى جبال المغرب مرورا على تونس و الجزائر، ما تؤكده الألبسة التقليدية لكل هذه المناطق أين الحايك كان يلبس لوحده أو مشترك مع قميص و مثبت بالإبريمات الكبيرة القبائلية مثلثة الشكل واستمر ارتداء الحايك في بعض المدن في الاحتفالات الى غاية القرن 19 مرفوقا بقفطان مطروز، كما نجده حاليا لدى العروس التلمسانية والتونسية ترتدي نفس الألبسة. في الجزائر العاصمة في القرن 16 كانت نساء المدينة تلبسن الحايك فوق قميص.

إن وظيفة الحايك جعلته ينتشر في الجزائر العاصمة مند الحضارات القديمة، كما انتشر في المدن المغاربية الأخرى، في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني قبل الميلاد، كانت نساء الرومان لا يخرجن من بيوتهن إلا ورؤوسهن مغطاة بستر ولم تكن الديانات المسيحية مقبولة من طرف السلطات الأمباطورية، لكن المجتمع الروماني اهتم بالتمييز بين الطبقات الاجتماعية عن طريق الألبسة، لكن الطبقة الأرستوقراطية لقرطاجة الرومانية التي ثم إعادة بناءها فوق الأطلال عاصمة قرطاجة بعد تخريبها في القرن الثاني قبل الميلاد فهي ليست قوية مثل روما، بحيث كانت نساء قرطاجة لاتلبس الستار بشكل منتظم مثل نساء روما حتى في القرن الثالث لما وصلت كنيسة إفريقيا إلى قمتها أجبرت الديانة المسيحية على ارتداء الستار باستمرار لغرض الاحترام والحشمة ولتأكيد التواضع الموجود في معظم الديانات والتي تسمح بالتفرقة بين المعتقدات و التعبير عن مسؤولياتهم، مثل ما أوصى به الإسلام بعد 4 قرون¹⁴.

لما انتشر الإسلام في المدن الساحلية الجزائرية في بداية القرن الثامن كانت نساء المدينة يلبسن الحايك مند حوالي ألف سنة، البعض منهن يتشبهن بجاراتهن من الجهة الثانية من البحر، بغطاء كبير يغطي الرأس ويتدل على الكتفين وعلى كل الجسد حتى القدمين، ولكن الأغلبية منهن استمرت في استعمال أطراف الحايك لتغطية الرأس وذلك للاحتماء من أشعة الشمس، واستمر هذا النوع من الغطاء اليوناني حتى انتشار الإسلام، ولكن هذا لم يرافقه تغيير عميق في الثقافة المحلية بين نهاية وبداية الألفية الثانية، أغلبية نساء المدينة المغربيات تبنيو الإسلام لكن طريقة عيشهم وألبستهم لم تتغير كثيرا، إذ انتشر الحايك أكثر في المدن. عند

رجوع "ابن تومرت" مؤسس السلالة الحاكمة من رحلته من الشرق، انتقد لباس سكان بجاية، فنسبة النساء اللواتي يلبسن الستار عند خروجهن في المدينة انتشر على السواحل الشرقية أكثر من على الغرب حتى في المدن الاستراتيجية و المزدهرة مثل بجاية وتلمسان المنتسبة إلى جبال القبائل لشمال المغرب. "ابن تومرت" تعارض بين هذا المشرق الذي تركه و المغرب الذي قصده وخاصة على الجوانب المركزية والغربية (شرق الجزائر تونس هم أكثر تمدنا وأكثر احتكاك مع حوض المشرق).

غضب والمواظب القوية لابن تومرت لم يساهموا في تحقيق حلمه برؤية أكثر نسبة من النساء يلبسن الحايك ، انها نتائج اجتماعية لسياسة إعادة تنظيم التي مست غرب المغرب العربي و"عبد المؤمن" خليفته (قبائلي هو أيضا من منطقة تلمسان بين ندرومة و الساحل) أنهى بنجاح بتوحيد وإعادة تنظيم المغرب والأندلس إذ سهل هذا التوجه إلى توسع المدن مند بداية الألفية الثاني، ساهمت للطبقات المسيطرة تجاريا بالخصوص و انتشار استعمال الحايك.

إن تعزيز العلاقات مع الأندلس وقدم عدد من المهاجرين الفارين من المستولين شاركوا في هذا التطور، فثرواتهم ونشاطاتهم ساهمت في حركة وتغير المدن المغربية، فزاد من انتشار استعمال الحايك بشكل واسع في حضن ممالك اسبانيا الإسلامية أين كانت نخبة من نساء المدينة أكثر تمسكا بالحايك من نساء إفريقيا الشمالية فحايك الأندلسيات تغير نوعا ما عن الشكل القديم، الموضوع على الرأس المتبث تحت الذقن باليد وينتهي حتى الركبتين قليلا وذلك لأن السروال يكفي ليغطي القدمين. شاع هذا الشكل في المدن المغربية التي استقبلت عدد كبير من المهاجرين .

في القرن 16 فاسيريو *vecellior* قارن بين لباس النسوي المغربي مع لباس الرومان، وكتب أن لباس نساء مملكة (تارميس *Termicen*) رائعة الجمال ترتدي قميص أسود عريضة الكمام، مع معطف من القطن أسود أو أزرق ، أين أطرافه مزركشة بالدونتيل (*dentelure*) و متبثة عند الكتفين في الوسط بحلقات من الذهب أو الفضة، وهذه الصورة التوضيحية التي توافق هذا الوصف هو مصطلح "معطف *manteau*" كما كتب فوتي باغاندي *venu parads* أن الحايك هو المنتج الأكثر أهمية التي تنتج بالجزائر العاصمة ، بحيث تصنع بغرب الجزائر العاصمة في مدينة تلمسان. وعموما فأن الحايك لباس تقليدي قديم قدم الحضارات بحيث انتقل من جيل إلى جيل اذ اعتبر رمزا للهوية الوطنية¹⁵.

V) وظيفة الحايك :

إن الحايك مند القدم أدى وظائف عديدة فهو ستار فضفاض أبيض اللون، بحيث كانت ترتديه المرأة الساكنة في المدينة لقضاء حاجاتها فاستعملته لغرض الحماية من الحرارة فلوونه

الأبيض يعكس أشعة الشمس، كما استعمل أيضا لغرض التمييز بين الطبقات الاجتماعية (التمييز بين سكان المدينة وسكان الريف) كما كان الحايك يعمل على حجب جمال المرأة المتمدنة الغنية ويحميها من الاعتداءات كما يحميها من عين الحسود خاصة المرأة المتزوجة كانت تخشى على خصوصيتها. فكان حتى الرجال يلبسون الحايك لنفس الغرض خاصة سكان المغرب بالجهة الغربية كانوا يغطوا رؤوسهم وكل الجسد. فالحايك كان يسمح بالتمييز بين الطبقات الاجتماعية خاصة بين سكان الريف والمدينة وداخل الريف يفرق بين الأعيان من القرويين والفلاحين، وهذا الدور يظهر أكثر عند النساء وذلك لأنه يدل على الانتماء إلى العائلات الغنية ويرمز إلى أن المرأة التي ترتدي الحايك لا تحتاج إلى العمل خارج البيت و الاحتراق تحت أشعة الشمس، ولا أن تختلط مع الأجانب، على عكس النساء البسيطات و الفلاحات اللواتي يعملن في أراضيهم ويبعن المحصول ، إذ يمكن لنا القول أن أصول الحايك انحدر من طبيعة اجتماعية .

وهذه الوظيفة زادت من انتشار الحايك داخل حوض البحر الأبيض المتوسط لقرون عديدة قبل الميلاد، وحافظ الحايك على هذه الوظيفة حتى بعد مجيء الإسلام داخل المناطق الجانية لسكان حوض البحر الأبيض المتوسط بين القرن 7 والقرن 8 ق.م مثل التي شغلها منذ أكثر من ألف سنة في مدن قديمة، في مصر خلال العصور الوسطى كانت اليهوديات مثل المسلمات و على الأرجح القبطي (*les coptes*) كانت تلبسن الحايك خاصة وإلى غاية القرن 19، وحتى في عاصمة مصر أغلبية النساء الفقيرات لا يتحجبن وكذلك النساء التركيات كانت تلبسن ثياب طويلة مثل الرجال دون تغطية وجوههن فكان فقط النساء الثريات يلبسن الحايك ويغطون وجوههن .

في مدن المغرب العربي الحايك الذي ظهر فترة الحضارة اليونانية حافظ على وظيفته وعلى شكله الفضفاض بالنسبة للنساء وحتى للرجال ، إذ استعمل الرجال حتى البرنوس الناتج عن الحضارات القديمة واستعمال هذا النوع من اللباس أبهر دول الشرق الأدنى و المصريين. لما كان ابن خلدون في مصر كان يرتدي هذا اللباس المغربي وهذا حتى مجيء العثمانيين و المهاجرين من السواحل الغربية إلى الحوض الغربي بداية من القرن 16 بدأ استعمال الحايك يقل بالنسبة للرجال بالجزائر العاصمة وأصبح مختصرا على رجال الدين والقانون ، لكن استعمال البرنوس أصبح في هذه الفترة منتشرا على عامة الرجال ومن كل أصول. أما بالنسبة للحايك الخاص بالمرأة استمر ارتدائه بنفس الطريقة إلى غاية القرن التاسع عشر¹⁶ .

الحايك والثورة الجزائرية :

بعد الحايك جزء من تاريخ الجزائر لما يزر من بطولات النساء في الفترة الاستعمارية خاصة في حرب العصابات داخل المدن، وما كان على النسوة إلا القيام بمهمات خطيرة ابان الثورة بزرع القنابل ونقل الذخيرة والتخفي فيه، لأن المستعمر كان يخشى أن يقترب من النساء والقيام بتفتيشهن. استغل بعض المجاهدين الحايك لتمويه المستعمر للتنقل دون أن يكتشف هذا إلا بعدما أفشى بهذا السر من طرف الخونة، فأصبحت النساء الجزائرية يرغمن في بعض الأحيان على نزعه أمام الحواجز أو يمرر علمهن الآلة لكشف إن كن يحملن السلاح.



فالمرأة المجاهدة استعانت بالحايك لتمرير القنابل و الأسلحة والوثائق السرية و أموال الثورة الخ ¹⁷.....

(VI) التغييرات في الحايك :

لقد طرأ على الحايك تغيرات عديدة بحيث أصبح حايك المرأة العاصمية قصيرا نتيجة للتقلبات الاجتماعية و الاقتصادية التي خلفها الاستعمار الفرنسي سنة 1870، مثل استعمال السروال العريض الذي يغطي كل الجسم ، أما الحايك فقد من طوله وأصبح يصل المرأة إلى الخصر.



القماش المصنوع من القطن الذي استعمل لصناعة السروال كان أقل تكلفة من قماش الجري الذي كان يصنع منه الحايك الذي كان يبلغ طوله 6 أمتار. بعد فترة عاد الحايك إلى طوله الأصلي لكنه أصبح يصنع من القطن الأبيض ، إذ زاد في الطول ما نقص في العرض، لم يعد فضفاض كما كان من قبل، أي في فترة الحضارة اليونانية. فالحايك في القرن 20 كان طويل طوله 4 أمتار بحيث يلف مرتين الجسم لكنه لا يثبت على الكتيفين بالإبريمات كما كان من

قبل، بل أصبح يثبت عند الخصر برباط للسروال و يتطلب ضبطه كل مرة باليد لأن بدون الإبريمات لا يثبت جيدا. داخل المجتمع الجزائري لم يختفي الحايك لكنه بعد سنوات استمر في التغيير في شكله ووظيفته خاصة وظيفة التي تتمثل في التمييز بين الطبقات الاجتماعية ، إذ بعد ما كان في الأول يخفي ثراء المرأة لحمايتها ، أصبح في نهاية القرن 19 يستعمل ليخفي الفقر و يقي من اعتداء الاستعمار الفرنسي ¹⁸.

كما أن الحايك يؤكد الانتماء الديني للنساء الجزائريات، إذ قام الاستعمار الفرنسي بأعمال حربية في بداية الثلاثينات من القرن 20 الفترة التي تأسست الحركة الوطنية الجزائرية قبل سنة 1954 وبالضبط منذ سنوات 1930-1935 المعركة الحاسمة بدأت بهجوم عسكري حول ارتداء الحايك بحيث عارض الاستعمار الفرنسي استعمال الحايك، وبعد استقلال الجزائر سنة 1962 عرف الحايك تقلص في الاستعمال و اختفى بحيث بقي مرتبط في ذاكرة الجيل الذي عاش الحرب بالفقر، فقط النساء العجائز لم يستسلمن للتغيرات التي وقعت في سنوات الستينات و السبعينات، فقط تونس والغرب وبعض من المدن الجزائرية بقيت محافظة على على تراثها الحرفي بلبس الحايك المصنوع من الحرير ومطرورز باليد في الأطراف .بحيث أصبح اليوم الحايك والملايا اليوم تقليدا في طريق الزوال إلا باحتشام وفي بعض المناطق فقط من البلاد وتحول إلى طقس للزواج التقليدي، حيث تخرج العروس من بيت أهلها إلى بيت الزوجية مرتدية حايك المرممة ،حاليا استبدل الرداء الخارجي الجزائري برداء منسوب أو مصمم ثقافيا في مكان آخر مثل الجلابة ، الحجاب والجلباب¹⁹.

يمكن القول في الأخير أنه من الجميل أن تنهض المرأة الجزائرية وتواكب تطورات العصر،ولكن الأجل والأروع أن تحتفظ لأجيال المستقبل بعادات وتقاليد مناطقهم ومدنهم والبصمات التي كانت ترسم حياة ومعيشة الأجداد في الماضي الجميل.

الخاتمة :

يعد الحايك تراث ثقافي يميز كل واحدة من النساء التي ترتديه وبالطريقة التي تستعمله، يعبر عن قمة السيرة والحياء،فهو يساهم في تمثيل الذات و التعبير عن الانتماء والذي يزيد المرأة حشمة ووقارا ،يرمز للهوية والأصالة،تتبع موجات حضارية التي تتحدى الوقت واهاناته ومختلف المراحل المعاشة،إذ أدى وظائف عديدة ومختلفة كما تأثر بالتغيرات الاجتماعية والثقافية وظروف الحياة وأصبح تقليدا في طريق الزوال إلا باحتشام في بعض المناطق،فتحول إلى تراث رمزيا بدون وظيفة، وعليه لابد من إعادة تأهيل هذه الأزياء خاصة الحايك الذي هو في طريق الاندثار وإحيائه وحفظ هذا التاريخ والذاكرة ومن تم تعريفه وتممينه للأجيال الشابة. كما لابد دعم وتحفيز الحرفيين المتخصصين في صناعة الحايك و تشجيع الشباب على تعلم هذه الحرفة.والقيام بتظاهرات ثقافية ومسيرات لنسوة يرتدين الحايك من أجل بعث الروح من جديد في هذا الموروث الثقافي الجزائري الأصيل.

الهوامش:

¹ - بن الشيخ حكيم ، مدينة الجزائر الأوضاع الاجتماعية الأنثروبولوجية (1945، 1954)، دار حومة للطباعة والنشر الجزائر، سنة 2013، ص200

² - عوف خالفة ترجمة سعاد فايلي ، تاريخ الألبسة التقليدية ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر، سنة 2007، ص58

³ - أنطوان نعمة ، المنجد في اللغة العربية المعاصرة ، دار المشرق بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى، سنة 2000، ص347.

⁴ - Rabah Abtou, tArtisanat,traditionnel,Le Génie d'un peuple,Editions SHFAR Algérie-p66

⁵ - Ibid- p66

⁶ - Ibid- p67

⁷ - Ibid-67

⁸ - Leyla Belkaid,ALGEROISES,Histoire d'un costume méditerranéen, de Paul Balta,Edisud,Alger p153

⁹ - حايك جزائري- wikipedia.org- wiki.

¹⁰ -من تراث الجزائر الحايك والعجار www4Algeria.com

¹¹ - Le fibule-Le blog de Paris Marrakech.com

¹² - Ibid- Leyla Belkaid- p 90

¹³ - Ibid-p146

¹⁴ - Ibid-p184

¹⁵ - Ibid-p150

¹⁶ - Ibid-p152

¹⁷ ehiwardz.com> culture.201719 مارس

¹⁸ P-PICHAULT,Le costume traditionnel ,Algérie Maison neuve et la rose-p58

¹⁹ - Ibid-p59